

U محمود درويش وبروكسل التي ظلت تنتظر محمود شقير

لهذا المساء هنا في بروكسل طعم آخر مختلف. منذ رحل عنا محمود درويش ونحن لا نفتأ نتذكره ونكتب عنه نصوصاً وقصائد ومقالات، ونقيم حفلات التأبين في مدن عديدة وأمكنة، تأسيماً عليه، وتأكيداً على عبقريته الفذة في الشعر وعلى رفته البالغة في حياته اليومية مع المعارف والأصدقاء. وكنا ومازلنا نتألم باستمرار لهذا الرحيل المفاجئ الذي أصابنا بالفجعة.

غير أن فجيعتنا تكبر أكثر فأكثر هذا المساء، حينما نتذكر أن محمود درويش كان على رأس المسهمين في الإشراف على هذا الموسم الثقافي الفلسطيني في بلجيكا، وكان له شرف رئاسة لجنة مسارات الفلسطينية التي عملت بالتعاون مع نخبة من أبناء بلجيكا وبناتها، على إنجاح هذا الموسم الثقافي. وقد كان من المفترض أن تكون أول فعاليات الموسم، أمسية شعرية لمحمود درويش. الآن يغيب محمود عن الأمسية لأن شرايين قلبه لم تسعفه في الوصول إلى هنا، مع أنه كان راغباً في ذلك، منتظراً بشغف تلك الأمسية المشتهاة.

ولو أنه كان معنا هنا الآن لاكتملت بهجة ليلى شهيد، سفيرة فلسطين لدى الاتحاد الأوروبي وصديقة الشعب البلجيكي، التي سعت جاهدة طوال عام لكي يتكلم هذا الموسم الثقافي بالنجاح. لو أنه كان معنا هنا الآن لاكتملت فرحة فابيان فيرستراتن التي ما انفكت تذرف الدموع تعاطفاً مع الشعب الفلسطيني كلما تعرض لإحدى الخسارات، والتي لم يشغلها أي شاغل عن مواصلة الإشراف والعمل الجاد طوال عام، لكي تكون لنا هذه المسارات الثقافية التي تبني مزيداً من جسور المحبة والتعاون بين الشعبين البلجيكي والفلسطيني، وتجسد على نحو ما واحدة من المعاني الكبيرة التي حفل بها شعر محمود درويش، عبر مخاطبته العميقة العابرة للحدود والأجناس والجنسيات، للإنسان بكل ما له من أشواق وتطلعات وهموم وآمال، أينما كان.

وأنا الآن أتذكره، أتذكر محمود درويش، في بعض وقائع أيامه التي سبقت موته. أتذكر آخر اجتماع له مع لجنة مسارات الذي انعقد في رام الله، في بيت عادلة وأكرم. كان متألقاً كعادته وضياء الوجه حاضر البديهة. وكعادته كان لا بد من أن يتخلل الاجتماع الذي يقوده، بعض سخريات وضحك. وكعادته كان منظماً في تفكيره وفي قدرته على الإصغاء، وعلى استخلاص الموقف الصحيح، من مجموع الآراء التي يدلي بها المجتمعون معه من رجال ونساء.

أتذكر آخر لقاء له مع الوزيرة ماريا أرينا. جاء قبل الوقت المحدد لوصول الوزيرة إلى مكان اللقاء، لكي يكون في استقبالها هو وليلى شهيد وأعضاء لجنة مسارات. جاءت الوزيرة ورحب بها محمود، وكان مجلسه إلى جوارها على مائدة الغداء. وكان لهذا الموسم الثقافي الذي يغيب عنه محمود الآن، مكان الصدارة في الحديث الذي دار بين الشاعر والوزيرة، التي جاءت إلى رام الله لتعلن رسمياً إقرار

الموسم وتبنيه، ولتنقل لنا تضامن الشعب البلجيكي مع فلسطين وشعبها. كان محمود يومها ممتلئاً حيوية وحضوراً وجاذبية كما هو شأنه باستمرار. وأتذكر آخر أمسية شعرية له قبل أربعين يوماً من غيابه، أحيائها في قصر رام الله الثقافي، في مناسبة احتفال المدينة بالذكرى المنوية لتأسيس أول بلدية فيها. دخل محمود إلى القاعة الغاصة بجمهور متعطش لسماع الشاعر وهو ينشد شعره البهي. وقف الجمهور احتراماً للشاعر الذي صاغ خلال العقود الخمسة الماضية الوجدان الفلسطيني وعبر عنه خير تعبير، وأثرى على نحو غير مسبوق، الهوية الوطنية والثقافية للشعب الفلسطيني.

في أمسيته الشعرية الأخيرة تلك، أثبت محمود أنه قادر على تجاوز منجزه الشعري، وعلى مفاجأة الجمهور بقصائد مدهشة، فيها تناول جديد لتجربته في الحياة ولطريقة صياغتها والتعبير عنها، ذلك التعبير الذي يضاعف حيز الاحتمالات، ويفسح في المجال للتأمل ولإعادة النظر في كل شيء، ولتوسيع مجال الرؤية، والاستعانة من أجل ذلك بالسخرية التي تلفت انتباهنا إلى ما فينا من هشاشة، وتعمل في الوقت نفسه على تجديد إحساسنا بالحياة.

في قصائده الأخيرة التي قرأها محمود على أسماع أعداد غفيرة من الناس، برزت تحولات نوعية راقية في مسيرته الشعرية. فثمة استمرار ملحوظ في الاستعانة ببعض جوانب السيرة الذاتية وبمخزون الذاكرة على نحو يسهم في إثراء العلاقة بالمكان الفلسطيني، وثمة تأمل عميق في الموت، وفي الحياة وتقلب لشتى احتمالاتها، وأسئلة تنفتح على عالم من التأملات والتفلسف الذي ينطلق من أبسط التفاصيل اليومية، ليحلق عالياً في فضاء لا يحد. ثمة قدرة خارقة على حيازة الشعر عبر التعاطي مع أكثر التفاصيل عادية وبساطة وهامشية.

في أمسيته الشعرية، واصل محمود درويش كما هو دأبه، تألقه الإبداعي الذي يفاجئ دون تهيب أو مساومة، الذائقة الجمالية لقطاعات واسعة من محبي شعره، يعززها ويعزز معها قيمة الأدب عموماً والشعر خصوصاً في حياة الناس. في تلك الأمسية تأكدت من جديد المكانة الراسخة لمحمود في قلوب الناس، وتأكدت حقيقة كونه الرمز الذي يوحد مشاعرنا ويؤججها في لحظة تسام فريدة نحو ذرى عالية، تجعلنا أكثر قدرة على استيعاب ما في حياتنا من بؤس وعادية وبلبلة وارتباك، وأكثر قدرة في الوقت نفسه على النظر إلى المستقبل بشيء من التفاؤل ويقدر من الأمل.

ومع ذلك، فقد حلت بنا الفاجعة في غير أوانها، ومات محمود الذي كان لمدينة رام الله شرفاً وإقامته فيها، بعد أن سمحت له سلطات الاحتلال الإسرائيلي بعودة ناقصة. مات محمود ولم يعد ممكناً صعوده درجات مبنى السكاكيني في رام الله متقدماً نحو مكتبه. لم يعد ممكناً تصفحه للصحف في المكتب الذي داوم فيه سنوات، ولن يشرب مزيداً من القهوة وهو ينجز عملاً ما له علاقة بمجلة "الكرمل" التي كان يرأس تحريرها، ويتلقى هواتف الأصدقاء، أو وهو يستقبلهم في مكتبه، يرحب بهم بكل ما عرف عنه من أريحية وتهذيب، ثم يندمج معهم في أحاديث شتى عما هو راهن من أحوالنا، وعما هو موجه للقلب. وسيكون ثمة وقت للكلام على الأدب،

على الشعر والرواية والقصة القصيرة وآخر الكتب. وسيكون ثمة وقت للمزاح
وللسخریات، وسيكون محمود سيد الساخرين وأمير المزاح. ستكون ثمة فسحة
للضحك، وستلتع عينا محمود خلف نظارته الطبية في صفاء، وسيكتسي محياه
بمسحة من ألق وبهاء. ووالأسفاه، فإن تلك البساطة المحببة لم تعد ممكنة.
ولم يعد ممكناً ذلك المشوار اليومي الذي اعتاد محمود أن يقطعه وحده أو مع
بعض الأصدقاء، في شوارع الحي القريب من بيته، انصياعاً لنصائح الأطباء
بضرورة ممارسة رياضة المشي حفاظاً على القلب من طارئ ما. لم يعد ممكناً
لمحمود أن يتأمل شجر الطريق ولا النساء ولا غسيل الشرفات، لم يعد ممكناً أن
يرى الشمس وهي تغطس ناحية الغرب على مسافة، من القرية التي شهدت
صرخته الأولى في آذار البعيد. أو أن يستمتع بهواء البلاد الذي يهب رخياً، رغم
المستوطنة الغربية التي تجثم على رأس الجبل القريب.
وبرحيله المربك، نكون قد فقدنا هامة شعرية وإنسانية عالية. سيفتقده محبون
كثيرون: أهل وأصدقاء ومثقفون وأناس عاديون. وستفتقده مدن كثيرة: حيفا ورام
الله وعمان وبيروت ودمشق وتونس والقاهرة والجزائر والدار البيضاء، ومدن
عربية وأجنبية أخرى مشى في شوارعها وجلس في مقاهيها وأنشد في قاعاتها،
قصائده. ستفتقده القدس التي كتب عنها ولم تتح له فرصة للعيش فيها. وستظل
قريته الأم: البروة، بأرضها المصادرة وبأنقاضها الباقية، تحن إلى فتاه العبقري
الذي خلد اسمها واسم فلسطين، بشعر باق على مر الزمان.
والمدينة، مدينة بروكسل التي ظلت تنتظره، تفتقده الآن. ونحن جميعاً نفتقده
ويصيبنا غيابه الفادح بالنقصان.